قصتان

ليانة بدر

١- سلحفاة تصعد إلى سمائها

غادرتني تلك السلحفاة وذهبت تفتش عن سمائها.

وجدها الولد هنا وأغرم بها قبل عامين. كنا نعبر السوق الريفية الأسبوعية المقامة على حافة المدينة المتوسطية. شوالات من الحبوب، أكياس ممتلئة ببهارات ملونة، باعة يعرضون كل ما يخطر وما لا يخطر على البال، من تماثيل الخزف الطيني الموشوم على الطريقة الفينيقية، إلى العظايات المجففة التي تبتاعها النساء من عربات العطارين لضمان حيوية أزواجهن. وبشر كثيرون يفرشون قففهم أو بسطاتهم بين الشمسيات والسقوف المصنعة من جريد النخيل لتخفيف الحر. موسيقى أرغول رعوية وطبول افريقية مع دقات دفوف عربية ترقّص الأطراف بشكل خفي على إيقاع كلمات أغانيها الشعبية، تذكرني في كل لحظة بمزيج الحضارات المتعاقبة على شمال أفريقيا .

ليانة بدر، كاتبة فلسطينية تقيم في رام لله

حملها الولد عندما اشتراها، ووضعها في علبة بلاستيكية تخترقها ثقوب صغيرة، يعبر منها بعض الهواء كي تتنفس سلحفاته الصغيرة. لم يتح لي وقتها أن أستوعب فكرة الانتقال الدائم إلى منفى آخر إلا بعدما دار ذاك الحوار عنها في الحافلة. أشار شاب تونسي إليها وقال لزميله :

-فايسل (فيصل). بربي ! هذا فكرون !

وعندما تلهى الولد عنها بعد مرور الفترة الأولى على عادة الأولاد في الملل من استئناف العناية بحيوان صغير ، أخرجتها من علبتها ووضعتها على الشرفة. أجلس قربها وأقرأ الرسائل التي تغلق قوسا من حياتي. امرأة وحيدة تحت نجوم الليل. وسلحفاة تختبيء تحت الطوار الأندلسي الذي يحيط الشرفة. ولا أراها، إنما أتخيل عينيها المشعتين. أفكر أن ما يربط النجوم مع الزواحف إنما هو أصل العالم. كلاهما ولد في فترات متقاربة تسبق جنسنا البشري. وما زالت السلاحف تحمل الكون على عاتقها حتى اليوم، بدروعها المنحنية المرسومة بدوائر صغيرة على شكل مقاطع عرضية تشبه جذوع الأشجار المقطوعة .

من وراء القاطع الخشبي المنقوش بالثقوب، أسترق السمع إلى غناء بنت الجيران التي تدمدم وتهدل كحمامة، وأراقب حياة أهل المكان وأعراسهم من خصص السياج ذاته . أتسلى لبرهة جديدة عن الوحدة التي تهدر مثل أمواج لا تتوقف حولي ، فلا أحد يسأل عني هنا . وأنا وحدي دون درايتهم أرصد نمو أشجارهم، وأعداد زوارهم ، وأزهار ليمونهم، وحجوم ثماره الصفراء المشبعة عصيرا. وأحاذر أن أنسى أن أرمي لها للسلحفاة، لـ «ثريا»، ذلك هو اسمها، قطعة جزر صغيرة أو ورقة خس أخضر مع بعض الماء.

ولم ألبث أن رأيته في الحديقة. كان يمشي ويتحرك متقلقلا بخطاه البطيئة. يحرس خطواته الواثقة من كيد القطط تحت الأعشاش الصغيرة التي تكونها شجرة اللبلاب مع تربة الجنينة.

يتشابه حجمه مع حجم ثريا، فكأنهما من جيل واحد بلون بني رمادي من فصيلة واحدة. يدب، ويدور حول الحديقة دون أن يصدر صوتا أو نأمة. خطر لي أن ألتقطها من الشرفة لأضعها قربه على التربة، لكنني تمهلت، فلربما هاجمتها الجرذان، أو ضاعت في مسلك خاطئ يؤدي إلى شارع الإسفلت فتدهسها السيارات.

ولأنه كان عليّ ضمان سلامتها فقد وجدت أن الأفضل هو أن أفكر في الأمر بتمهل و«على رواق». ربما ستقتلها القطط الغادرة لو حملتها ووضعتها هناك دون حماية. فهي ليست في الأصل من هنا، وقد يؤثر هذا على إمكانية بقائها. ثم، إذا اختفت في حفرة ما، فكيف سأضمن أن تعثر على غذائها، وأن تستطيع التقاط الخس الأخضر الذي أتركه لها ؟ وربما ضاعت في نفق يؤدي إلى حديقة جارنا الذي يكره الحيوانات، ويحاول إبادة كل ما تطاله يداه منها ؟ لن أنسى كيف مات كلب جيراننا في الشارع الخلفي، عندما بادر إلى استدعاء الأعوان لقتل الكلاب الضالة في البورة القريبة.

لذلك تمهلت وأجلت نقلها إلى الحديقة.

ويوماً لفت انتباهي إلى أنها تكرر الدوران حول الشرفة العالية طيلة الوقت، فأعدت ذلك إلى تأثير حر منتصف الصيف. لكن ما صعقني حقا هو يوم أن اكتشفت أن «الفكرون» السلحفاة في الحديقة يدور الدورة ذاتها. آنذاك أخذت قرارا لا رجعة عنه بنقلها نهائيا إلى الجنينة. خصوصا بعدما حكى لي بعض الأصدقاء عن أن هنالك سلحفاة متوحدة، صارت تمتنع عن الطعام بين عائلة السلاحف التي تعيش في حديقتهم.

كان ذلك ما عزمت عليه فعلاً، لولا أن شؤونا بيتية عاجلة استغرقتني أياما وأياما. كنت أضع الخس والجزر مع الماء على باب الشرفة، ولا أطل على ثريا بانتظار فسحة من هدوء. كنت، وكنت، وكنت..

إلى أن رجعت إليها ، فلم أجدها. بحثت طويلا على البلاطات المزخرفة بالنقوش العربية، وتحت الكراسي، وعلى السياج، وأيضا لم أجدها !

لم أكد أصدق نفسي، لكن نظرة أخرى إلى حافة الطوار الذي يحيط الشرفة، والذي كان ممتلئا بأصص الزرع جعلتني أشهق فزعاً. كان هيكلها معلقا على الحافة التي لم تفلح في اجتيازها ، وكان رأسها ناشفا ، ومحجرا عينيها فارغين من العينين اللتين سطا عليهما طائر جارح ولا بد ، فقد غادرت مخبأها الأمين بين الأصص وسيقان الكراسي، وعلقت في مكان لا شراب ولا طعام فيه ولا عودة منه. وأنا الحمقاء التي لم يخطر لي أنها قد تكون فعلا مثلنا.

لم يخطر لي أبدا..
حتى حينما وجدت أن الفكرون الآخر في الجنينة قد هجر الدار إلى غير رجعة.

٢- حفلة

ثمانية رؤوس على طاولة واحدة. والمغنية على المسرح.

هو ليس مسرحاً في الحقيقة، بل انه قطعة خشب أفقية منصوبة داخل قاعة أفراح، منذ ذلك الزمن الذي حشر فيه الناس داخل بيوتهم بأوامر عسكرية، فما عاد باستطاعتهم التجمع إلا للموت أو الميلاد أو مناسبات الزواج. أقيمت الحفلة في هذا المكان المخصص لعقد الاجتماعات المحلية، أو لإقامة الأفراح في مدينة يهاجر أهلها الذكور إلى أمريكا في العادة، فيما تتضاءل احتمالات عودتهم فلا يرجعون إلا مرات قليلة، وغالبا ما يكون السبب هو الاقتران بفتاة الأحلام المناسبة.

لم تكن القاعة مسرحا فنيا، وإنما أريد لها الآن أن تكون كذلك.

إضاءة نيون مدرسية، وحبل من أضواء زرق وصفر ركّب على عجل لكي يكون لائقا بالمناسبة. وأضيفت سلتا ورد على جانبي الخشبة على جري العادة في احتفالات الأعراس.

ثمانية رووس صغيرة تشبه بعضها متحلقة على الطاولة الأمامية. وواحد منها لطفل بين العامين والثلاثة ينزل عن كرسيه بلباسه الأزرق البحري، وقصة شعره «المارينز»، وهو يصرخ مناديا على المغنية التي اعتلت خشبة المسرح.

كانت قد بدأت الغناء. لكنه لا يهتم ولا يهاب النغم المنطلق من ثلاثة عازفين، ومن المغنية الشادية التي كانت أمه إلى ما قبل طلوعها إلى المسرح.

فرقة صغيرة. عازف الأورغ. عازف طبلة، عازف عود، لا أكثر. والمغنية التي ترتدي الثوب الوطني التقليدي تستعيد ذكرى شوارع طرقتها، ومعالم تجولت فيها، ثم أغلقت ولم تعد

تتذكر بعدها سوى الجدران. تشدو وهي تبتسم بمرارة وكأنها تعاتب العالم على نبذه لها.

جدران وراء جدران. وهي تحاول الصعود إلى سماء أخرى لكن شيئا حولها لا يشير لها بأن محاولتها مجدية.

ظل حنين صوتها يتفتق خلفها، ويقارع أشكال الإسمنت المعلقة حولها على شكل شقق وبيوت. بدأ صوتها في التدحرج وفقد انضباطه القديم. صعد فوق كتل الحجارة في الشارع. تسلق النوافذ المغلقة باحثا عما افتقده الجميع ولم يعد متوفرا في هذا الزمن. شعلة الإيمان !. فلا هي تؤمن بأن خروجها من عطالتها الطويلة في البيت وفر لها الفرصة التي حلمت بها بعدما تغيرت الأحوال. ولا الجميع.. جميع المستمعين كانوا بحاجة إلى تذكيرها لهم بأيام الاحتباس، ومنع التجول في الانتفاضة الأولى .

مر أكثر من سبع سنوات حين كانت وحدها من يغني لهم وراء الجدران المغلقة، والبيوت الصامتة.

تغيرت الأحوال اليوم، ولم تعد الشوارع مسدودة بسيارات الجيش التي تذرع الطرقات حاجزة عنهم الهواء.

ربما ثماني سنوات وأكثر.

ثمانية رؤوس صغيرة، وثماني أغنيات قصيرة تغنيها المغنية على خشبة المسرح. ليس في حوزتها سوى حلم بالاتزان، ومحاولة التوازن، ومد يد متقشفة إلى العالم. وضجيج التصفيق الذي حظيت به أيام طلوعها الأول يتدافع إلى رأسها، والناس لا يتوقفون عن المضغ والبلع من الصحون الكثيرة المصفوفة أمامهم على طاولات القاعة.

كانت تنظر إلى تزاحمهم على البوفيه الرئيسي بوداعة، شاكرة لهم الحضور، ومحاولة غض

النظر عن حركاتهم الموزعة بين الشوك والملاعق والمغارف. كانوا غاطسين في أحاديثهم المتدفقة بالثرثرة، فكأنهم هم أيضا بعض أطفالها الذين لا يكفون عن متابعتها بنظراتهم حيثما اتجهت.

لم تكن الملابس الاحتفالية التي ترتديها ملابس خاصة بالسهرة. وقع اختيارها على الثوب التقليدي «الفلاحي» باللون الأسود والمطرز بألوان زاهية، كي لا تثار الأقاويل الظالمة عن تشابه حفلتها مع سهرات «الكاباريه» . فقد نسي الناس عهود الأفراح القديمة، وصاروا يدينون كل من يجرؤ على إقامة عرس أو حفلة. قد يجرؤ أحد الحاضرين على التشهير بها، ظناً بأنه لم يحن الوقت لتخطي مراحل الأحزان رغم عهد الأمل الجديد.

تسريحة الشعر المعقودة فوق رأسها كانت تكابر هناك مثل شجرة عيد ميلاد تأبى أن تذعن للصقيع. منذ أيام زواجها الأولى لم تذهب إلى صالون كي تصفف شعرها. كان الوضع صعبا دائما، ولم يكن من الممكن النظر إلى مآتم الشهداء حولها، ومآسي عائلات السجناء من الجيران، ثم الذهاب بكل بساطة وتصفيف شعرها بما يفوق عادتها من التمشيط المنزلي البسيط .

فكرت بالأصدقاء المتحمسين الذين عملوا على تنظيم هذه الحفلة، أملا في إعادة إحياء فرصة ظهورها وعودتها إلى الغناء. هجست بأن زوجها واحد منهم. كأنه التقط صدى معاناتها التي نزت عن جراح عمرها المهدور قطرة فقطرة، فأراد أن يعطيها الفرصة كي تتنفس ولو مرة واحدة كي تقول لمن حولها :

أنظروا، هذي أنا. الزواج لم يقطع دابر أنفاسي.
حاولت كثيرا أن تسأله إن كان وراء تنظيم هذه الحفلة، فأنكر وراوغ وكأنه لا يعرف شيئا.

أنهت وصلة أغنيات الطرب العربية، وبات عليها أن تبدأ جدول منوعاتها الجديد الذي أرهقت وهي تستعيده فاصلة فاصلة. أغنياتها القديمة هي نفسها. تستعيد كلمات المقاومة

والنضال والتشبث بالأرض.

يتلوى العود شجناً وأنيناً وندا ءات التزام واضحة أو ملغزة. لكن نمالا كثيرة لا تلبث أن تدب في صوتها فتفاجأ بأنه قد فقد بريقه، وضاع في حلقها.

تأملت المدعوين الذين تزاحموا على البوفيه الواسع الذي يرقد في زاوية قصية من المكان. لا أحد يستمع. إنهم منشغلون بتعبئة صحونهم الحافلة بمنوعات الأطباق اللذيذة التي حرموا منها أيام إغلاق المطاعم في الماضي القديم.

جميعهم منهمكون ولا أحد يكلف نفسه مشقة التطلع إليها. يعاملونها كجزء مضمون من جهاز راديو يملكونه قيد الاستخدام. لا أحد يتابعها سوى الطفل الصغير الذي بدأت دموعه الغزيرة في السيلان على قميصه الأبيض المكوي.

وهي الآن فوق الخشبة تحمل نبرات صوتها الشجى والحنين كله، لكن ما يخرج منها لا يمثل سوى الخيبة المصفاة قطرة فقطرة.

ماذا تفعل إذاً ؟

قامت بالإعلان عن استراحة، ونزلت إلى الصغير الذي كان قد بدأ في تمزيق المحارم الورقية وإلقائها على الأرض، دون أن تفلح أخته الكبرى في إسكاته. انحنت قربه كي تمسح دموعه، فإذا بيده الصغيرة تمتد بغتة وتدخل في تسريحة شعرها. أفسدت التسريحة الجديدة وضاع تصفيفها، وتحولت أطرافها إلى بقايا متطايرة من شعر كث ومتداخل. أرادت أن تصفعه كما كانت ستفعل لو أنها كانت في بيتها، لكنها تراجعت وسايرته بكلمتين طيبتين. فماذا لو ارتفع صوته بالعويل، والتفتت إليهما الأنظار جميعها ؟

ماذا تفعل إذاً ؟

نظرت حولها، لم ينتبه أحد إلى ما جرى. أعادت رص التسريحة كيفما اتفق، ونظرت بحسرة إلى حذائها الذي يزعجها، وتمنت في سرها لو أن الحفلة تنتهي بأسرع ما يمكن كي يتسنى لها أن ترجع إلى بيتها. ترتخي على الكنبة، ثم تضع قدميها في ماء ممزوج بالملح.

كانت تحلم بأن يتوقف الزمن ويعود الى الوراء عشر سنوات أو أكثر، فيعود هؤلاء الناس إلى ما كانوا عليه، وتعود هي إلى ما كانت عليه، وينتهي ينتهي كل هذا.

ومع هذا، فقد كانت تحس الآن وللمرة الأولى في حياتها بأن ما مضى لن يرجع، وأنها أبدا بعد الآن لن تثق في ثبات أية تسريحة منضدة على شعرها، حتى لو حلفوا لها ألف مرة أنه الزمن الجديد.. الجديد.